قراءة سياسية

العلاقة مع المجتمع الدولي ؟
إمكانية التعايش أم حتمية الصراع

بقلم: حسين أبو عمر

إصدار: مؤسسة بصائر

ما زالت الدعوات إلى عدم الدخول في صراعات مع المجتمع الدولي، وإلى تحييد بعض الأطراف الدولية الفاعلة - بل وخداعها حتى حين! - تتكرر من قبل الغالبية العظمى من "الجماعات الإسلامية" منذ عشرات السنين؛ فهل دعوات التحييد هذه واقعية؟ وهل أسباب وقرار الصراع بيد هذه الجماعات حتى تقرر التحييد متى شاءت، أم أن هنالك أسبابًا خارج سيطرة الجماعات هي المؤسسة وهي المغذية للصراع؟ بل وهل دخلت هذه الجماعات وقت نموها وذروتها في صراع مع الدول الضامنة للنظام الدولي أصلًا، حتى تنادي بتحييد هذه الدول وقت ضعفها وهبوطها؟!

نظرية الصراع في تحليل العلاقات الدولية

يرى أقطاب المدرسة الواقعية في تحليل العلاقات الدولية، أن العلاقة بين الدول هي علاقة صراع دائم، يشاركهم في هذا الرأي الكثير من المختصين في العلاقات الدولية ومن المؤرخين وعلماء الاجتماع وعلماء النفس؛ يتفق هؤلاء جميعًا على توصيف العلاقة بين الدول بأنها حالة صراع مستمر، وإن اختلفوا في تحديد الأسباب الدافعة للصراع.

في كتابه "السياسة بين الأمم" يقول مؤسس المدرسة الواقعية في تحليل العلاقات الدولية "هانز مورجنتاو" - يرجع الكثير أصول هذه المدرسة "الواقعية" إلى مراحل زمنية

قديمة: إلى السفسطائي توكيديدس (460 ق.م. - 395 ق.م.)، وإلى ابن خلدون وميكافيللي وغيرهم - يقول أستاذ العلاقات الدولية هانز مورجنتاو: "الصراع من أجل القوة ظاهرة شاملة زمانًا ومكانًا، وأن التجربة أقامت الدليل على صحة وجودها كحقيقة، وليس ثمة من يستطيع أن ينكر أن جميع الدول، على اختلاف أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ قد التقت في جميع الأزمنة والأماكن على الصراع من أجل القوة." ويقول في موضع آخر من كتابه: "ليست السياسة الدولية كغيرها من السياسات إلا صراعًا على السلطان".

فالسياسة الدولية من وجهة نظر "مورجنتاو" وأتباع النظرية الواقعية الكلاسيكية؛ هي صراع من أجل تحصيل وزيادة القوة ومن أجل السيطرة، وأن هذا الصراع ليس عرضيًا، إنما هو شامل زمانًا ومكانًا.

في كتابه "العلاقات السياسية الدولية: دراسة في الأصول والنظريات" يقول الدكتور "إسماعيل صبري مقلد": "تنظر النظرية الواقعية إلى المجتمع الدولي والعلاقات الدولية على أنها صراع مستمر نحو زيادة قوة الدولة واستغلالها بالكيفية التي تمليها مصالحها أو استراتيجياتها." كما ينقل الدكتور إسماعيل عن "نيكولاس سبيكمان"، أستاذ العلاقات

الدولية الشهير وصاحب إحدى أشهر نظريات الجيوبولتيك، قوله: "الصراع وليس التعاون هو الطابع المميز للعلاقات الدولية".

حتى حالات التعاون والتحالف التي قد تبدو بها بعض الدول أحيانًا، يرجعها الدكتور "جمال سلامة" إلى الصراع، فالتعاون والتحالفات لا تحصل إلا عندما تتصارع هذه الدول المتحالفة مع طرف آخر؛ فالصراع هو سبب التعاون والتحالفات؛ في كتابه "تحليل العلاقات الدولية: دراسة في إدارة الصراع الدولي" يقول الدكتور جمال سلامة: "ويلاحظ أن النمط الصراعي هو النمط الغالب على التفاعلات الدولية برغم محاولات التنكر لتلك الحقيقة، بل أن النمط التعاوني الذي قد تبدو فيه بعض الدول، هو نمط موجه لخدمة صراع أو نمط صراعي آخر تديره الدولة أو مجموعة دول ضد دولة أو مجموعة أخرى".

بل إن بعض الكتاب يرجع نشوء الظاهرة السياسية وحتى نشوء الدول؛ إلى الصراع، يرى المفكر وأستاذ القانون والسياسي الفرنسي "جان بودان": "أن نشأة الدولة ترجع إلى ظاهرة الصراع بين العائلات أو القبائل، فنتيجة للحروب بينهما أخذت تلك العائلات تعمد إلى التحالف مع بعضها ضد

الأخرى، ومن هنا نشأت اتحادات بين العائلات كانت بمثابة نواة لتكوين الدولة." [المصدر السابق]

كذلك فعل الدكتور "جاسم سلطان" في كتابه "قواعد في الممارسة السياسية"، فقد أرجع سبب نشوء الظاهرة السياسية إلى الصراع والتدافع، الناتج عن: الاختلاف، وتنوع الاحتياجات، والندرة، وهي تقريبًا نفس الأسباب التي ذكرها عالم الاجتماع الأمريكي "لويس كوزر"، حيث يعرف الصراع بأنه: "النضال المرتبط بالقيم والمطالبة بتحقيق الوضعيات النادرة والمميزة، القوة والموارد".

يختلف العلماء من كافة الاختصاصات والمدارس في الأسباب المؤدية للصراع، فكل مجموعة تنظر من زاوية اختصاصها: فمنهم من يرجعها للدوافع السلوكية ولما يسميها الطبيعة الاستحواذية والعدوانية للبشر، ومنهم من يرجعها لأسباب اجتماعية (العوامل الديموغرافية وغيرها)، ومنهم من يرجعها لأسباب قومية، ومنهم من يرجعها لأسباب سياسية، ومنهم من يرجعها لأسباب جيوسياسية، ومنهم من يرجعها لأسباب اقتصادية، ومنهم من يرجعها لأسباب عقائدية ومذهبية، ومنهم من يرجعها لأسباب إيديولوجية، ومنهم من يرجعها لأسباب تاريخية، ومنهم من يرجعها لأسباب حضارية... مختلفون في تحديد الأسباب، ولكنهم متفقون على توصيف الظاهرة بأنها (حالة صراع مستمر). يقول الدكتور جمال سلامة: "ينظر معظم علماء الاجتماع والنفس

إلى ظاهرة الصراع كقانون أزلي وحتمي يحكم العلاقات داخل اي تجمع بشري".

النظام الدولي (الغرب) والجماعات الإسلامية

لم تكن تصريحات الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون عن الإسلام قبل أيام فلتات لسان عابرة، كما لم تكن مجرد إشغال للمجتمع الفرنسي عن أزمات داخلية تمر بها فرنسا، كذلك لم تكن تصريحات مرشح اليمين الفرنسي لانتخابات الرئاسة الماضية، صاحب السيرة السياسية الحافلة بالمناصب، مؤلف كتاب "هزيمة الشمولية الإسلامية"، "فرانسوا فيون" عن معاداة الإسلام مجرد دعاية انتخابية، ولا تصريحات ترامب الكثيرة من قبل، ولا تصريحات مستشاره السابق للأمن القومي عن كون "الإسلامية هي سرطان خبيث في جسد 1.7 مليار شخص على وجه هذه الأرض، وعلينا استئصاله". لم تكن هذه التصريحات إلا تعبيرًا صريحًا عن الممارسة السياسية الحقيقية التي مارستها - وما زالت - الدول الضامنة للنظام الدولي (الغرب) منذ نشوئه، بعيدًا عن خطابات النفاق السياسي، التي كان يلقيها السياسيون في تلك البلاد لفترات طويلة من الزمان من قبل.

يقول "صموئيل هانتنجتون" في كتابه "صراع الحضارات": "يقول بعض الغربيين بما فيهم الرئيس "كلينتون" أن الغرب

لـيس بينـه وبـين الإسـلام أي مشـكلة، إنمـا المشـكلات موجـودة فقـط مـع بعـض المتطـرفين الإسـلاميين، أربعـة عشـر قرنًـا مـن التاريخ تقول عكس ذلك".

في كتابـه "النظـام العـالمي: تـأملات حـول طلائـع الأمـم ومسـار التـاريخ" قـال "هنـري كيسـنجر" بعـد أن سـاق عـددًا مـن ثوابـت الإسلام وقواعـده، والتـي مـن المفـروض أن تكـون مـن المسـلمات عند الجماعات الإسـلامية، قـال: "كتلـة الأفكـار هـذه تمثـل عكسًـا شـبه كلـي وقلبًـا لنظـام وسـتفاليا العـالمي، لا تسـتطيع الـدول، بنظـر أنقـى طبعـات الحركـة الإسـلاموية، أن تكـون المنطلـق المناسـب لأي نظـام دولـي، لأن الـدول علمانيـة، هـي إذن غيـر شـرعية." فبحسـب مفهـوم كيسـنجر، وهـو المفهـوم العـام لمفكـري وصـناع القـرار في الـدول الضـامنة للنظـام الـدولي، إن عمليـة التعـايش بـين النظـام الـدولي القـائم وبـين مـا يسـميها حتـى "أنقـى طبعـات الحركـة الإسـلاموية" لا يمكـن أن تحصـل، والنقـاوة هنـا بمعـايير الغـرب، لا بمعـايير الإسـلام؛ أي أقـرب الحركات لمفاهيم الغرب.

أمـا مهنـدس الشـرق الأوسـط الجديـد "برنـارد لـويس"، فيقـول في لقـاء تلفزيـوني بعـد أن ذكـر عـددًا مـن الأمـور المسـببة للصـراع بـين العـالم الإسـلامي والعـالم المسـيحي الغربـي (التصور عن الذات وعـن الآخـر، والمهمـة التـي يحملهـا كـل طـرف،

والخلفيــة التاريخيــة، والجغرافيــا)؛ بعــد أن ســاق هــذه الأســباب وصــل لنتيجــة: "فالصــراع يكــون حتميًــا.. الصــراع يجــري منــذ مــن أكثر من أربعة عشر قرن".

لــم يكــن صــراع الغــرب ضــد العــالم الإســلامي محصــورًا بدولــة أو بعــض دول الغــرب، إنمــا كــان ومــا زال صــفة عامــة شــاملة لــدول الغــرب جميعهــا، في مقالتــه "هــل تحولــت الحــرب على الإســلام إلى مــرض وبــائي" يقــول الــدكتور محمــد الجــوادي: "تتمثــل أولــى ســماتها في كونهــا مــن أطــراف متعــددة، وعلى جبهــات متعــددة لكــن قــذائفها تنصــب على طــرف واحــد فقــط" إلــى أن يقول: "ونحــن نعــود بعــد كــل تأمــل لنكتشــف أن الحــرب العالميــة الثالثــة لهــا صــفة غيــر مســبوقة وهــي أنهــا "حــرب متخصصــة ودقيقــة التخصــص والتصــويب إلــى حــد مــذهل فهــي حــرب على "الإسلام السني" وليست حربًا على غيره أبدًا".

وقــد ســبق الــدكتور الجــوادي إلــى هــذا التوصــيف لحالــة الصــراع الكاتــب المســيحي اللبنــاني، أســتاذ الجيوبولتيــك، الــدكتور "نبيــل خليفــة" في كتابــه "اســتهداف أهــل الســنة"، حيــث قــال: "إن المواجهــة الكبــرى في عــالم اليــوم تقــوم بــين الحضــارة الغربيــة المســيحية بفروعهــا الثلاثــة: البروتســتانتية (أمريكــا) والكاثوليكيــة (أوروبــا) والأرثوذكســية (روســيا) ومعهــا الفــرع العبــري وتعبيــره في إســرائيل والحركــة الصــهيونية مــن جانــب،

وبين الحضارة الإسلامية (صراع حضارت) ببعدها السني"... وهذه المواجهة تشمل الكون كله، والناس كلهم؛ كما يصفها للدكتور نبيل خليفة.

فالصراع بين الغرب والعالم الإسلامي من وجهة نظر مفكري الغرب وساسته وصناع القرار عنده، هو صراع حتمي وليس عرضيًا، وهو صراع شامل لكل التاريخ فلا يمكن حله ولا تجنبه الآن ولا مستقبلًا، وهو صراع معولم من حيث المكان، إذ أنه يشمل الكون كله، وهو صراع ضد الإسلام السني كله وليس ضد جماعات معينة فقط؛ إذ أن الصراع لا يرجع سببه الرئيسي إلى طبيعة هذه الجماعات وأفكارها وسلوكها فقط، وإنما يرجع لأسباب حضارية، ولأسباب تاريخية، ولأسباب جيوسياسية، ولأسباب اقتصادية تتعلق بالموارد، ولأسباب ديموغرافية (ما أكثر الدراسات الغربية التي تحذر من النمو الديموغرافي للعالم الإسلامي)، ولأسباب تتعلق بالإسلام نفسه... قال تعالى: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:217].

تراكم كل هذه العوامل (العقائدية، والتاريخية، والحضارية، والجيوسياسية، والديموغرافية، والاقتصادية وغيرها...)

يجعل التعايش بين النظام الدولي (الغرب) وبين ما يسميها كيسنجر "أنقى طبعات الحركة الإسلاموية" مستحيلًا، ولذلك كان الغرب وما زال يخوض ضد كل هذه الجماعات صراعًا شاملًا تدميريًا، وهو نمط من الصراع لا يرضى فيه أحد الأطراف إلا بتدمير كل قدرات الطرف الآخر.

تعامل الجماعات الإسلامية مع الصراع

يقول الدكتور نبيل خليفة في كتابه: "عندما نشرت دراستي "استهداف أهل السنة" (اللواء، 23 أكتوبر 2013)، "تفاجأ الكثيرون لأنهم كانوا يظنون أن ما يجري هو العكس تمامًا!". ليس غريبًا أن يذكر الدكتور هذه الحقيقة، ولكن الغريب جدًا أن يتفاجأ القراء من ذكرها؛ فأهل السنة ليس فقط لا يستهدفون الآخرين، بل إنهم لا يدافعون عن أنفسهم حتى!

لم تدخل الغالبية العظمى من "الجماعات الإسلامية" – حتى "الجهادية" منها – في صراعات مع النظام الدولي ولا مع الدول الضامنة له. إن الغالبية العظمى من هذه الجماعات تحاول ليس فقط تحييد الأطراف الضامنة للنظام الدولي، بل ما زالت تحاول حتى بناء علاقات مع بعض هذه الأطراف، مقدمة في سبيل تحقيق ذلك تنازلات كثيرة جدًا.

لكـن، ظلـت نظـرة الغـرب وظلـت طبيعـة صـراع الغـرب مـع هـذه الجماعـات هـي هـي .. صـراع تـدميري؛ لأن العوامـل المؤديـة للصـراع والمحـددة لنمطـه، هـي غيـر مـا تتصـوره الجماعـات، ولا يمكن تغييرها بتنازلات فضلًا عن تصريحات أو لقاءات ...

في الثـورة السـورية كمثـال، دخـل النظـام الـدولي - ومـازال - في صـراع مـع كـل الجماعـات، بينمـا هـذه الجماعـات - كلهـا بـلا اسـتثناء - لـم تـدخل في أي صـراع حقيقـي مـع النظـام الـدولي، ولا مـع أي دولـة مـن الـدول الفاعلـة فيـه، اسـتعمل النظـام الـدولي ضـد هـذه الجماعـات أشـكالًا عـدة مـن أدوات الصـراع؛ مـن حصـار وتضـييق، ومنـع سـلاح إلـى تـآمر علنـي، وصـولًا إلـى أن طائرات النظام الدولي كانـت ومـا زالـت تقصـف مـن شـاءت ومتـى شـاءت، دون أن تـدافع أي مـن هـذه الجماعـات عـن نفسـها؛ بـل بعضها لم يجرؤ حتى على استنكار هذه الاستهدافات!!.

الجماعات في ساحة الشـام لـيس فقـط لـم تـدخل في صـراع مـع الأطـراف الضـامنة للنظـام الـدولي، بـل إن الجماعـات - مـن أسـوأ طبعة إلى أنقى طبعـة مـن وجهـة نظـر النظـام الـدولي - بقيـت لبضـعة سـنوات بمحـاذاة إسـرائيل، دون أن تـدخل أي مـن هـذه الجماعـات في حـرب مـع إسـرائيل، أرادت هـذه الجماعـات أن تحيد حتى إسـرائيل عـن المعركـة! كانـت سياسـة الجماعـات إلـى

هـذه الدرجـة مـن السـعي إلـى التحييـد! ولكـن كانـت نهايـة الجميع في الجنوب عن طريق تآمر النظام الدولي معلومة.

مـن الأعـذار التـي سـيقت لتبريـر بقـاء هـذه الجماعـات كـل تلـك المـدة بمحـاذاة إسـرائيل دون أن تـدخل معهـا في أي صـراع، هـو أن إسـرائيل كانـت تهـدد بـرد قـاس جـدًا إذا تجـرأت أي مـن الجماعـات على ارتكـاب أي فعـل على الحـدود؛ يعنـي أن إسـرائيل طبقـت علـيهم مـا يعـرف "بنظريـة العقـاب الشـامل" أو "سياسـة الحافـة" التـي بلورهـا وزيـر الخارجيـة الأمريكـي في بدايـة الخمسـينيات "جـون فوسـتر دلاس" في مواجهـة الاتحـاد السـوفييتي، والتـي مضـمونها: "الطريقـة الوحيـدة لـردع أي معتـدٍ في المسـتقبل هـي أن تقنعـه مقـدمًا بأنـه إذا لجـأ إلـى العـدوان فسـوف توجـه إليـه ضـربات انتقاميـة عنيفـة تجعلـه الخاسر في النهاية من وراء عدوانه".

أيًا كانت الأسـباب الدافعـة لـذلك؛ فالحقيقـة، لـم تـدخل الغالبيـة العظمـى مـن "الجماعـات الإسـلامية" - السياسـية منهـا والجهاديـة - أي صـراع حقيقـي مـع أي طـرف مـن الأطـراف الضامنة للنظام الـدولي، بـل إن الأطـراف الدوليـة هـي مـن بـدأت وما زالـت تخـوض ضـده هـذه الجماعـات حـرب استئصـال تدميريـة، وأن هذه الجماعات لم تدافع عن نفسها حتى!.

كما أن تأخير هذه الأطراف الدولية لاستئصال بعض الجماعات لا يرجع إلى سياسات هذه الجماعات، ولا إلى دعوات التحييد التي تطلقها، أو إلى غيرها من الأوهام التي تتصورها هذه الجماعات؛ وإنما يرجع إلى أهداف خاصة بهم ومراحل تقتضيها استراتيجياتهم في إدارة الصراع، وعندما تحين مراحل الاستئصال لن يكون التعامل مختلف عن التعامل مع فصائل الجنوب السوري بكل أطيافها، ولا عن التعامل مع إخوان مصر أو غيرهم من الجماعات.

في الختام، هذه ليست دعوة للدخول في حروب مفتوحة شاملة مع كل العالم.. إنما هي محاولة للوصول لقراءة واقعية صحيحة لعوامل وطبيعة الصراع، وهي دعوة لنبذ السطحية في قراءة السياسة الدولية، وللتوقف عن الانسياق وراء التصورات الساذجة في كيفية بناء الدول لسياساتها، ومن ثم محاولة صياغة استراتيجية واعية لإدارة الصراع.

بقلم: حسين أبو عمر

الإثنين ٢ صفر ١٤٤٢

بصائر